المحاضرة الثانية:
البواكير الأولى للفكر الفلسفي والعصور التي مرت بها

مرّت الفلسفة اليونانية بأربعة عصور وهي على النحو الآتي:

أولاً: الفلسفة اليونانية (الهيلينية).

ثانياً: عصر الفلسفة اليونانية (الهيلينستيّة).

ثالثاً: العصور الوسيطة: المسيحية، والإسلامية.

رابعاً: عصر الفلسفة الحديثة (عصر النهضة).

البواكير الأولى للفكر الفلسفي والعصور التي مرت بها

مرّت الفلسفة اليونانية بأربعة عصور وهي على النحو الآتي:

أولاً: الفلسفة اليونانية (الهيلينية):

لم تكن الفلسفة اليونانية حكمة يونانية خالصة، بل إنها تأثرت بحكمة البابليين في العراق، والفراعنة في مصر، إلا أن الفلسفة المنظمة هي من العقل اليوناني، وعلى أية حال فإن التفكير في الوجود وأصله، والإنسان ومصيره ظهر قبل اليونانيين، في مصر وآسيا الصغرى مثل: فيثاغورس، وديقريطس، وأفلاطون وغيرهم، وقد تأثروا بأفكار وعلوم أهلها إلا أن الفلسفة والعلم قد ارتقت على يد اليونان.

ومرت الفلسفة اليونانية بثلاثة أدوار وهي:

١- النظر في الكون عند الفلاسفة الطبيعيين: لقد بدأت الفلسفة اليونانية بالبحث في الطبيعة أو العالم الخارجي، لأن الإنسان في انتباهه الأول يجد نفسه أمام الطبيعة، فيحاول أن يفسر حوادثها ويتعرف عليها، فالفلاسفة الأوّلون الطبيعيون أمثال: طاليس، واكسمندر، وانكسمانس، وهرقليطس، والفيثاغوريون علماء في الطبيعة، كانوا يضعون (الفروض) لفهم الطبيعة من حيث أصلها أو مكوناتها أو الأساس الذي لا يطرأ عليه التغيير، كقول طاليس:(إن أصل العالم ماء ...) إنهم بحثوا كذلك في عوامل التغيير التي تحدث في الطبيعة من نمو الأشياء وتطورها وموتها، وبهذا فإن أول ما توجه إليه اليونان القدماء هو الكون أو الطبيعة أو ما يسمى: (بالعالم الخارجي)، وكل ما يتعلق بالأفلاك وغيرها.

هذه هي الموضوعات التي تركزت عليها أفكار الطبيعيين من فلاسفة اليونان في مرحلته الأولى، وكان من أبرز الأسئلة أمام هؤلاء الفلاسفة الطبيعيين هي: ما أساس الأشياء التي تبقى بعد التغيرات التي تحدث؟

فأجاب طاليس من خلال بحثه عن أصل الكون أن الماء هو المادة الأولى التي صدرت عنها الكائنات، وإليها تعود الحياة تدور مع الماء وجودا وعدما، فتكون الحياة حيث الماء، وتنعدم حيث ينعدم.

إذن أصل نشأة الكون هو الماء عند طاليس، وهكذا يعد طاليس أول إنسان حاول أن يفسر الكون لا بالأساطير بل على أساس علمي، ومهما كانت فكرته بسيطة فهي المحاولة الفلسفية الأولى.

٢- **النظر في الإنسان (سقراط والسوفسطائية):** وفي هذه المرحلة من الفكر اليوناني أخذ التحول لا يميل إلى البحث في العلم الطبيعي، لذلك سمي هذا العصر بعصر البحث في الإنسان وكل ما يتعلق به من قضايا أساسية كالأخلاق والإرادة وغيرهما، وليس النظر في العالم الخارجي أو الطبيعة، ومن فلاسفة هذه المرحلة التي تَرَكَزَ فيها البحث في الإنسان هم: (سقراط، والسوفسطائية) في التوجه للبحث في الإنسان، ولكنه خالفهم في قولهم بالتغيير والنسبية، كما جاء في العبارة المشهورة لبروتوغوراس: (إن الإنسان مقياس الأشياء جميعا)، أما سقراط فيرى أن حقائق الأشياء ثابتة كالقيم الأخلاقية، وقد كان تأثير سقراط كبيراً على فلاسفة اليونان، فانقسم هؤلاء إلى مدرستين كل منهما فهمت توجه سقراط بطريقتها الخاصة، والمدرستان هما: المدرسة الكلبية وأسسها (أنتيسينيس)، والقورينائية أسسها (أرسطبس).

قد كانت الأخلاق مستحوذة على أفكار سقراط وسلوكه، فكان يرى أن الفضيلة هي غاية حياة الأنسان، وإن بعض أتباعه تأثروا بهذا السلوك وفسّروه بطلب اللذات وذلك عند القورينائية، وظهر اتجاه آخر من أتباعه الذين مالوا إلى التقشف كما كان يفعل استاذهم سقراط وهم الكلبية.

فالكلبيون: هم جماعة من المفكرين كانوا يتشبهون بسقراط في تقشفه الذي كان يسير عاري القدمين ويتحدث مع الناس في الأسواق، فكانوا يقلدون سقراط واختاروا الفقر كرها واحتجاجا على حياة الناس المبتذلة.

ولقد ثار الكلبيون ضد المجتمع بعاداته وانظمته، فقد رفضوا الملكية، والأسرة والمدنية، ونظروا إلى الناس بالتساوي، لا يوجد إنسان أفضل من آخر، ولا يجد مكان في العالم أفضل من آخر ... رفضوا أن تكون أرض (أثينا) أفضل من الأماكن الأخرى، وبهذا فإن آراء الكلبية (حول فكرة المجتمع الدولي الواحد) تعبر عن فكرة المواطنة العالمية.

والقورينائيـة: هـي المدرسـة الثانيـة التـي ظهرت متأثرة بسقراط، الذي كانـت (السـعادة) تحتل الصـدارة فـي فلسفته، وكـان يعدها هـي الغايـة التـي تستهدفها أفعـال الإنسـان، فرغب بعض تلاميذه بهذه الفكرة وأبـرزهم (ارسطبس)، فحوّلها الانصـراف عن حيـاة الزهد والإقبـال إلـى مبـاهج الحيـاة الحسية، فأنشأ مدرسة تبشير بهذه النزعة وهي (المدرسة القورينائية)، وقد نسبت هذه التسمية إلى قرية (قورينا) في إقليم برقة في ليبيا، وتسمى في الوقت الحاضر(شحات) وما زالت آثارهم إلى الآن تشهد إقامتهم فيها.

٣- البحث المنظم: تعد هذه المرحلة التي مرت بها الفلسفة اليونانية من أعظم المراحل، إذ برز فيهـا أبـرز فيلسـوفين فـي تـاريخ الفلسـفة اليونانيـة همـا: أفلاطـون وأرسـطو، وكانـت فلسـفتهم شـاملة ومنظمة عن العلم والإنسان .... إلخ.

بحـث هذان الفيلسوفان بحثاً منظماً وعلمياً شمل قضـايا الأخـلاق والطبيعـة والـنفس، ولا سيما أرسطو الـذي أشـتهر فـي تقسيمه للعلـوم، إذ خصـص لكـل علـم دائرتـه الخاصـة، فقد أخـرج نظامـاً للفلسـفة كـاملاً، بحـث فـي كـل فروعهـا فـي مـا بعـد الطبيعـة، والمنطـق، وعلـم الـنفس، والأخـلاق، والسياسة، والجمال ... الخ.

ثانياً: عصر الفلسفة اليونانية (الهيلينستيّة):

سمي هذا العصر بعصـر الفلسفة (الهيلينستيّة) لامتزاج الحضـارتين: الرومانيّة واليونانيـة، فقد صـارت اليونان جزءا من المملكة الرومانية، إذ استولى الرومان علـى (مقدونيا) وجميـع بـلاد اليونـان سنة: ١٤٦ ق.م، وانتقل بـذلك جزء كبير من الحضـارة اليونانيـة إلـى الرومانيـة، وفـي هذه المرحلـة انتهت مرحلـة البحـث المنظم إلـى مرحلـة تحصـيل العلـوم وسـعة الاطـلاع، أكثر منـه عصـر بحـث ونظر، وعلى الرغم من ذلك فقد انتشرت المدنيّة اليونانيـة في أرجاء العالم، وصـارت مركزاً للمدنيّة والعلوم والمعارف.

بعـد سـقوط بـلاد اليونـان فـي أيـدي الرومـان أدى بـالبلاد إلـى تغييـر تـام فـي السياسـة والعلـوم، فالنظـام السياسي للحياة اليونانية أخذ ينهار، والمبادئ الأخلاقية ضـعفت، واهتزت الديانـة اليونانيـة، كل هذه الأسباب جعلت الإنسان اليوناني يبحث عما يهديه في حياته، فلجأ إلى الفلسفة، وقد غلب البحث في هذه المرحلة على الأخلاق.

ثالثاً: العصور الوسيطة: المسيحية، والإسلامية:

١- **عصور وسيطة مسيحية:** يسمى هذا العصر عصر الفلسفة النصرانية في أوربا، إذ سقطت الدولة الرومانية وانهارت حضارتها المتأثرة بالحضارة اليونانية، وجاء سقوطها على يد (المغول)، بعد أن ضعفت، إذ أصابها الانحلال في قيمها الأخلاقية، فصارت لا تستطيع مقاومة الأمم القوية.

وأخذ المحتلون من الحضارة اليونانية والرومانية ومزجوها بأفكارهم المحدودة ثقافياً، وفي هذه المرحلة برز عدد من الفلا سفة المسيحيين الذين حافظوا على آثار العقل اليوناني من خلال استخدامهم للفلسفة والمنطق سلاحاً للدفاع عن دينهم، بعد أن كانت الكنيسة تضطهد آداب اليونان والرومان وعلومهم وتحاربهم، لأنها حددت دائرة الفكر في الديانة.

وظلت الفلسفة الغربية خادمة للدين قرون عدة، وكان من أبرز الفلاسفة المسيحيين في هذه المرحلة هو الأب (أوغسطين)(٣٥٤- ٤٣٠م) و (أنسلم) و (توما الاكويني)، وامتد هذا العصر إلى القرن التاسع الميلادي، والمرحلة المسيحية التي امتدت من القرن التاسع إلى القرن الخامس عشر لقبت بالعصر(المدرسي)، لأن التعليم كان يقوم به الرهبان في مدارس الكنائس، وقد أنشأ (شارلمان) كثيرا من المدارس في جميع أنحاء فرنسا فكان مدرسوها من رجال الكنيسة

٢- **عصور وسيطة إسلامية:** أما الفلسفة الإسلامية في العصور الوسيطة فكانت مختلفة عما هي عليه في أوربا، ففي الشرق كان التقدم العلمي والفلسفي مزدهراً، وكانت هذه المرحلة تسمى بـ(العصر الذهبي)، نتيجة التطورات التي كانت تشهدها البلاد الإسلامية في حينها، وعلى الرغم من ذلك فإنها لا تخلو من اضطهاد لهذا العالم أو ذاك الفيلسوف إذ لم تكن أفكارهم تناسب مزاج بعض الأمراء.

ولا شك فإن مجيء الإسلام سنة: (٦١٠م) أحدث تغيراً في طرق الحياة والنظر إلى الأشياء في العلم نظرة مختلفة، فظل الدين يملك حياة الناس في الجزيرة العربية فكان ينظم حياتهم في السياسة والمجتمع جميعاً، وعلى هذا فإن (البحث العقلي) الفلسفي لم ينشأ بالمعنى الواضح، فكان المسلمون يتداولون في الأمور الدينية ثم إن الدين الإسلامي قد رفعهم إلى مقام أكبر في بناء الدولة والفتوحات وتأسيس دولة شامخة.

وفي الدولة الأموية كانت العلوم الدينية هي المعروفة، والتي تتضمن علم الكلام والإلهيات، فكانت أبحاثهم تدور حول مسائل منها: هل إن الإنسان مسيّر أم مخيّر؟ أو ما يسمى (حرية الإرادة)، والكلام عن (مرتكب الكبيرة) هل هو مؤمن أم كافر؟ وانقسم المسلمون إلى فرق مختلفة، ولكنها كلها تدخل ضمن الجدل الديني والتي سميت بـ(علم الكلام) لأن مناقشتها وجدالها كان يدور حول كلام الله والمواضيع المرتبطة به.

أما في زمن الدولة العباسية فقد توسعت رقعت الأراضي الإسلامية وتكونت لها حضارة واسعة، واستفادت من فكر الفرس والروم والهند واليونان وعلومهم، فنشطت ترجمة العلوم اليونانية المختلفة في خلافة أبو جعفر المنصور، والرشيد، والمأمون، ومن جاء بعدهم، وترجمت كتب الفلسفة كالطبيعيات والإلهيات والأخلاق والسياسة، ومنه كتب أفلاطون وأرسطو وأفلوطين وغيرهم، وقد انكب المسلمون على دراستها وشرحها وإضافة الأفكار الجديدة إليها النابعة من الدين الإسلامي.

رابعاً: عصر الفلسفة الحديثة (عصر النهضة):

في هذه المرحلة ظهرت حركة فكرية وثقافية في أوربا الغربية في القرن الرابع عشر، وكانت موجهة ضد أفكار العصور الوسيطة المدرسية، وابتدأت النهضة في بعث العلم والفن والفلسفة اليونانية، وقد ظهرت واضحة في إيطاليا مجسّدة في (دانتي) و (دافنشي) وغيرهما، وقضت أوربا قرنين كاملين في ثورتها الفكرية، أو نهضتها التي أدت إلى الفلسفة الحديثة في القرن السابع عشر، حيث جاءت الفلسفة الحديثة رافضة للمدرستين، فدعت إلى حرية الفكر وإلى تحكيم العقل .. وتخلصوا من سلطة رجال الكنيسة وأرسطو في آنٍ واحد، ففصلوا الدين عن الفلسفة، وظهرت حرية الفكر، ووجهوا النقد لمثل أفلاطون وغيره، واتجهوا إلى البحث العلمي المستند على الملاحظة والاستقراء، ومن أبرز الفلاسفة في بداية الفلسفة الحديثة هم: (فرنسيس بيكون) و (رينيه ديكارت).